اليهود في رواية منيف " أرض السواد"
على ضوء صورتهم في الأدب العالمي والعربي
د. عادل الأسطة / جامعة النجاح / فلسطين

أنجز عبد الرحمن منيف روايته "أرض السواد" ما بين (١٩٩٧ و ١٩٩٩)[١] ، وهذا هو الزمن الكتابي ، وتجري أحداث الرواية في الفترة ما بين (١٨٠٢ و ١٨٢١) ، وهذا هو الزمن الروائي ، وهي فترة حكم داود باشا العراق[٢] .

ومن القضايا التي تلفت نظر القارئ صورة اليهود في الرواية . وهي قضية لم تظهر ، في حدود علمي ، في روايات منيف السابقة . ما هي صورة اليهود في الرواية ؛ وهل صورهم عبد الرحمن منيف في حدود ما كانوا عليه وما عرف عنهم في الأدبيين العالمي والعربي أم أنه أسقط عليهم آراء عرفت عنهم في فترات لاحقة للزمن الروائي ، وكأن الزمن الكتابي ترك أثره على الزمن الروائي ، وهذا ما يلحظ أحياناً لدى كتاب لا يتمثلون الفترة التاريخية التي يكتبون عنها، إذ تتسلل أحياناً بعض مفردات أو أشياء لم تكن موجودة سابقاً ، وعرفت في فترة لاحقة ، إلى النص بطريقة عفوية . بصيغة أخرى : هل أسقط منيف ، وهو يرسم صورة اليهود في روايته ، تصورات عرفت عنهم بعد عام ١٨٢١ ، العام الذي توقفت أمامه أحداث الرواية .

للإجابة عن هذا السؤال لابد ، ابتداء ، من التوقف أمام صورة اليهود في الأدبين العالمي والعربي قبل ١٨٢١ .

صور اليهودي في الآداب الغربية على أنه ذلك المرء المنطوي على نفسه ، المعتزل ، وليس هذا التصور راجعاً إلى ما يصدر عن المؤلفين وإشكالاتهم الشخصية المسيحية أو اليهودية، فقد كان يتأثر بالمتغيرات الدينية والاقتصادية والاجتماعية ، وغالباً ما كانت الصورة تتشكل لكي تؤثر على جمهور القرّاء . وعلى أية حال فإن شخصية اليهودي كانت تبدو مثل شخصيات تاريخية لافتة ، مثل شخصية (نابليون) ، ولم تكن هناك ثمة صورة واحدة لهذه الشخصيات ، إذ رسمت لها صور عديدة سببها المتغيرات التي تلم بالتاريخ .

لم تجسد الشخصيات اليهودية ، في الكتابة المسيحية للعصور الوسطى ، موضوعات متفقاً عليها . استلهمت شخصيات العهد القديم لتشكل نموذجاً يعبر عن موقف منشود إزاء الله. وإن بدا بعض اليهود ، خلافاً للشخصيات المؤمنة ، مسؤولين عن معاناة المسيح .

لقد كانت الباروكة الحمراء والقفطان الأسود يشكلان ، في ليالي الصوم وفي أثناء الألعاب الحماسية والغامضة ، عدواً شريراً للمعتقدات المسيحية . والعلامة التي كانت تميز الشخصية اليهودية غالباً ما كانت تتجه نحو يهودا الخائن البائع . ونُعِتَ اليهودي بأنه محب للمال ومحتال وخبيث وداهية . لقد بدت

هذه الصور في بعض النصوص التي ظهرت في حدود العام ١٣٨٦ . وثمة إشاعات انتشرت انتشاراً واسعاً أبرزها قتل اليهود الأطفال وتسميمهم الآبار ، وأضيف إلى هذه تصورات أخرى أظهرها الأدب الإنجليزي ، على الرغم من أنه لم يعش في إنجلترا ، بين ١٢٩٠ و ١٥٥٦ ، يهود .

كان إذن لليهود في الآداب الأوروبية حضوران ، سلبي وإيجابي . سلبي يتمثل في الصفات السلبية التي أشير إليها ، وإيجابي يكمن في اتكاء بعض الكتاب على نماذج مؤمنة من العهد القديم غدت مثالاً للطائفة المسيحية ، لمن ينتظر منها الخلاص على الرغم من المعاناة . وظهر هذا التصور الأخير في الدراما الفرنسية ، وفيها بدت الشخصيات اليهودية ذات ملامح بطولية ، ومن الكتاب الذين أبرزوا هذا (جون ملتون) (١٦٧١) و(أرنست بالاخ) (١٩٢٤) ، وعلى الرغم من أن الشخصيات المستلهمة من العهد القديم كانت تثبت على معتقداتها ، إلا أنه لم يكن ينظر إليها على أنها متطابقة مع الشعب اليهودي . لقد نظر إليها على أنها نماذج إنسانية لها مشاكل إنسانية ، ونادراً ما نظر إليها جمهور القرّاء أو جمهور المسرح على أنه ممثلة للطائفة اليهودية .

وعلى الرغم من خاصية علمنة الأدب وتوجه الأدباء الواعي للأحداث المعاصرة إلا أن ثمة أوصافاً سلبية لليهود تعمقت في هذه النصوص . لقد صدمت صورة اليهود السلبية ، مثل أنه مستغل بلا خجل ومراب كذاب ومنطو على نفسه مكروه ، لقد صدمت كتاباً متنورين ، وعمل هؤلاء على معارضتها ودحضها ، ولكنهم في أثناء هذا كانوا يوردون هذه الصفات لتظل في خلفية الأشكال الأدبية . طبعاً لقد أراد الكتاب من الجمهور أن يُسائِل هذه الصفات ، وطلب الكتاب أيضاً من الجمهور أن يتأمل في اليهودي المقموع الذي يعاني ، وفي النهاية أن يتأمل في اليهودي المثالي .

لقد شنعت بعض الأعمال على اليهودي المرابي الذي يدمر المواطن المسيحي ويتركه يعاني ، ومن هذه "يهودي مالطا" (١٥٨٨) لـ (كريستوفر مارلو) و"تاجر البندقية" (١٥٩٥) لـ (شكسبير) ، وغدا (باراباس) و(شيلوك) مضحكين وشريرين ونمطين ، وأصبحا نموذجاً للأدب العالمي .

غير أن آداب القرن التاسع عشر بخاصة قللت من قسوة هذه الصورة ، وفيها غدا اليهودي ممثلاً للتجارة الحكومية ، وظهر النموذج اليهودي الممثل للروح الرأسمالية . بدا اليهودي ، هنا ، باحثاً عن ذاته وقاسي القلب يكيف نفسه ، بذكاء ومكر ، مع أي وضع . إنه يستغل ما يوجد مع الآخرين ولا يعرف إلا هدفاً هو الصعود إلى أعلى . (لربما يجدر أن نتأمل هذه الأسطر الستة ونحن نقرأ رواية منيف) .

علينا ألا ننسى صورة أخرى لليهودي ظهرت في فترات لاحقة للعصر الوسيط ، وبخاصة في عصر التنوير . أبرزت بعض الأعمال صورة إيجابية لليهودي هي صورة اليهودي النبيل ، اليهودي المتسامي ، اليهودي الذي يقف

إلى جانب الآخر إذا كان ذا حظ سيئ ، يبدو اليهودي هنا ذا قلب واسع ، ويبدو مستعداً للمساعدة وكريماً . إنه يفكر بنبل ، وهو حكيم ومتسامح ، ويضحك من الآراء المسبقة التي يشكلها العالم عنه ، بل ويغفر للمجتمع . هنا يمكن أن يشار إلى (روبرت جرينه) (١٥٩٢) الذي مدح حكمة الرابي (بيليزيه) وإلى (جورج هربرت) (ق ١٧) الذي مجد في قصيدته "اليهودي" شعب الله المختار ، وهي سابقة لعصر التنوير ، ولكن هذا العصر شهد بروز أعمال لافتة ، منها مسرحية الكاتب الألماني (جوتهولد لنسج) "ناثان الحكيم" (١٧٧٩) ، ونص (ريتشارد كوبرلاند) "اليهودي" (١٧٩٤) ، لقد أبرز هذان النصان التفكير المتسامح للعصر . أدرج (لنسج) في مسرحيته يهودياً مفكراً ذا قلب كبير ، ليقنع محيطه بالإنسانية الحقيقية التي هي مختفية لدى جميع الشعوب . إن ثقة (لنسج) بقوة تطور الإنسان ، وبإمكانية التسامح لديه ، أخذت ، منذ ذلك الوقت ، تميز تصورات اليهودي المثالي بعامة . وسيقرأ المرء ، في أعمال أخرى لاحقة ، عن اليهودية التي تغدو صورة ذات معنى للطموحات الإنسانية إزاء الحكمة .

وسيقرأ أيضاً عن يهود يدرجون أنفسهم لخدمة السلم العالمي وعن أطباء يهود يعانون ويحتملون من أجل التخفيف عن معاناة الناس ، كما سيقرأ المرء عن مُربٍ روحي يساعد الآخرين من أجل السيطرة على العالم والتحكم به لصالح الإنسان .

ومع ما أثارته قضية (دريفوس) في فرنسا ، بعد عام ١٨٩٤ ، فإن فرنسا لم تعدم وجود كتاب هاجموا المحكمة العسكرية ، ومن هؤلاء (إميل زولا) في مقالاته التي كتبها في عام (١٨٩٨) وعام (١٨٩٩) . لقد رأى أن اليهودي المشنع عليه هو ضحية آراء مسبقة .

ولكن ماذا عن المرأة اليهودية ؟

إذا ما غض المرء النظر عن أدب المرأة اليهودية ووصف الحياة المعبر لليهوديات ، فإن ما يتبلور هو صفة مميزة في وصف المرأة اليهودية . تندفع هذه ، كما تصورها النصوص الأدبية ، في مغامرة الاندماج ويثير موقفها هذا الإعجاب ، ويوقظ قدرها التعاطف معها . إنها تسحر القارئ الذي ينظر إليها على أنها نموذج معارض ، نموذج يجمل سلوكاً . وتبدو المرأة اليهودية ذات جمال مدهش ، وامرأة مليئة بالحب تضحي بنفسها من أجل الآخرين ، امرأة تعشق وتتبع في عشقها صوت قلبها ، وهي تتخلى عن المعتقدات القديمة وعن شعبها ، لتجد ، في النهاية ، الإنسان فيها[٣] .

وسأغض الطرف عن الصورة التي ظهرت في نصوص كتاب يهود وإسرائيليين ، لأن ما يهمني هنا هو الصورة التي رسمها كتاب غير يهود لليهود . وللقارئ العربي الذي يرغب في تتبع تصور اليهود لذاتهم في نصوصهم يمكن الإحالة ، على سبيل المثال لا الحصر ، إلى دراسة غسان كنفاني "في الأدب

الصهيوني" ودراسة معين بسيسو "نماذج من الرواية الإسرائيلية المعاصرة"[٤].

والآن ماذا عن صورة اليهود في الأدب العربي حتى عام ١٨٢١ ، العام الذي توقفت أمامه رواية منيف ؟ سوف أحاول إبراز هذه الصورة من خلال نماذج بعضها اشتهر وبعضها أقل شهرة ، وإن كان كاتبو الأخيرة أدباء مشهورين جداً .

تجدر الإشارة ، ابتداء ، إلى قصة الشاعر السموأل بن عاديا ، الشاعر الجاهلي المعروف. لقد ضرب المثل بوفاء هذا الشاعر وقيل "أوفى من السموأل" ، ذلك أنه شاعر آثر أن يضحي بابنه على أن ينكث بالعهد الذي أخذه على نفسه ، وظل السموأل مضرب مثل بالوفاء ، حتى أعاد الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان النظر في قصته[٥] . وقد يكون طوقان فعل هذا تحت تأثير اللحظة الفلسطينية القاسية التي ساءت فيها العلاقة بين أهل فلسطين العرب والحركة الصهيونية . وذهب طوقان إلى أن السموأل لم يضح بابنه لأنه أراد أن يوفي بعهده ، وإنما فعل ذلك لأنه فضل المال على ابنه .

وإذا ما بحثنا عن صورة اليهود في القرآن الكريم[٦] ، لاحظنا أن القرآن يعترف بأنبياء بني إسرائيل ويجلهم ويقدر مكانتهم ، بل أن النص القرآني يذكر صراحة أن الله – سبحانه وتعالى – فضل بني إسرائيل على العالمين . وربما يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، فإذا كان المسيحيون يذهبون إلى أن يهودا خان معلمه وقتله ، فإن النص القرآني يقول : (وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم) . ولكن الكتابة عن اليهود تتخذ ، في القرآن ، شكلاً آخر ، إذ صور اليهود بالتنكر للحق والمجادلة فيه ، وبالنفاق ونقض المواثيق ، وبالجبن والخيانة ، وبالحرص الشديد على الحياة ، وبكراهية المسلمين والكيد للإسلام ، وبالغدر بالأنبياء والإجرام والفساد في الأرض ، وبالسعي الدائم لإشعال الحروب . وهذه الصفات التي نعتوا بها في القرآن ستلازم اليهود في كثير من النصوص التي كتبت بعد نزول القرآن .

يأتي الشاعر العباسي أبو نواس على ذكر اليهود ، في بعض قصائده ، ومنها تلك التي قالها في الخمر ومطلعها :

وفتيان صدق قد صرفت مطيهم   إلى بيت خمّار نزلنا به ظهرا[٧]

ويكون صاحب الخمارة يهودياً ، ويمكن إجمال صفاته ، من خلال النص الشعري ، على النحو التالي :

يظن الآخرون به خيراً ، فيظن هو بهم شراً ، وهو لا يرضى أن يكون على دين المسيح، لكأن هذا شتيمة ، وهو يحب الآخرين ظاهراً ولكنه يضمر لهم الغدر ، وفوق هذا لا تشرفه الكنى العربية ولا تكسبه الثناء ولا الفخر . لنقرأ بعض أبيات القصيدة :

فلما حكى الزنار أن ليس مسلماً ظننا به خيراً فظن بنا شرا
فقلنا على دين المسيح بن مريم ؟ فأعرض مزوراً وقال لنا هجرا
ولكن يهودي يحبك ظاهراً ويضمر في المكنون منه لك الغدرا
فقلت له ما الاسم ؟ قال : سموأل ولكنني أكنى بعمرو ولا عمرا
وما شرفتني كنية عربية ولا أكسبتني لا ثناءً ولا فخرا

وشبه أبو الطيب المتنبي الذي كان يشعر بالغربة في عالمه ، شبه إقامته بين بعض الأقوام التي عاش بينها بإقامة المسيح بين اليهود . ويفهم من بيته المعروف :

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود[٨]

أن اليهود سيئون ولا تجدر الإقامة بينهم ، لأن مصير من يقيم بينهم هو الموت .

ولم تخل كتب أبي حيان التوحيدي[٩] كاتب النثر المعروف من ذكر اليهود . يرد في الليلة السابعة والعشرين من كتاب "الإمتاع والمؤانسة" المعروف جيداً ، يرد ذكر عن مجوسي ويهودي يلتقيان في الطريق ، ويملك الأول بغلة وطعاماً خلافاً للثاني ، ويرأف المجوسي باليهودي فيطعمه من طعامه ويركبه بغلته حتى يقاسمه عناء الطريق . ولما يركب اليهودي بغلة المجوسي يتخلى عنه ويتركه ولا يرأف به مع أنه – أي المجوسي – صاحب البغلة ، ويبدو اليهودي خائناً لا يحب الآخرين ، بل إنه يحتقرهم ، وهذا ما يرد على لسانه حين يسأله المجوسي عن مذهبه :
"أعتقد أن في هذه السماء إلهاً هو إله بني إسرائيل ، وأنا أعبده وأقدسه وأضرع إليه ، وأطلب فضل ما عنده من الرزق الواسع والعمر الطويل ، مع صحة البدن ، والسلامة من آفة ، والنصر على عدوي ، وأسأله الخير لنفسي ، ولمن يوافقني في ديني ومذهبي ، فلا أعبأ بمن يخالفني، بل أعتقد أن من يخالفني دمه لي يحل وحرام علي نصرته ونصيحته والرحمة به"[١٠] .

ويتعثر اليهودي وبغلته ، ترفسه البغلة وتلقيه أرضاً ، ويمر به المجوسي فيأخذ البغلة ويركبها ويسير ، وهنا يصرخ عليه اليهودي طالباً منه المساعدة ، فيرأف به ثانية ويسيران معاً ، وحين يُسأل المجوسي لماذا ساعد اليهودي ثانية مع أنه غدر به وخانه ، يوضح أن ما فعله اليهودي يعود إلى أنه طبع فيه تعود عليه وليس من السهل التخلي عنه .

ولعل أهم نص توقف أمامه الدارسون ، من العرب والمستشرقين ، هو قصيدة أبي اسحق الإلبيري الأندلسي[١١] ، التي مطلعها :

ألا قل لصنهاجة أجمعين بدور الزمان وأسد العرين

وهو نص كتبه الشاعر يحرض فيه الحاكم حبوس بن باديس على وزيره اليهودي يوسف بن النفرلة الذي استبد وطغى . يوصف اليهود في النص على أنهم كفار ، وقرود أراذل ، ويستخفون بالمسلمين ويتطاولون على الصالحين ، وأنهم فراخ الزنا ، وفاسقون ، وكلاب ، وجبناء ، وسحرة ، وبشر يكنـزون المال – لتقرأ هذه الأبيات :

وكيف تحب فراخ الزنا	وهم بغضوك إلى العالمين
وكيف استتمت إلى فاسق	وقارنته وهو بئس القرين
فقد ضجت الأرض من فسقهم	وكادت تميد بنا أجمعين
تأمل بعينيك أقطارها	تجدهم كلاباً بها خاسئين
وهم يقبضون جباياتها	وهم يخضمون وهم يقضمون
وهم أمناكم على سركم	وكيف يكون خؤون أمين ؟
وقد لابسوكم بأسحارهم	فما تسمعون ولا تبصرون
ولا ترفع الضغط عن رهطه	فقد كنـزوا كل علق ثمين

هكذا بدا اليهود في نصوص من الأدب العربي حتى بدايات القرن التاسع عشر ، فهل شذت صورتهم في رواية منيف عن الصورة التي بدت لهم في الأدبين العالمي والعربي ؟ لن أتوقف أمام صورة اليهود في الأدب العربي بعد عام ١٨٢١ ، وهي موضوع لفت أنظار دارسين كثر ، دفعهم لأن ينجزوا العديد من الدراسات حوله[١٢] .

تجري أحداث الرواية في بغداد ، أساساً ، وفي كركوك والسليمانية ، وتحفل بنماذج بشرية تنتمي إلى العراق وبلاد فارس ، وأخرى جاءت إلى العراق من بلاد آسيا الوسطى ومن فرنسا وبريطانياً ، وهذه النماذج البشرية نماذج حقيقية لها حضور في أرض الواقع كما لها حضور في الرواية ، ومنها سعيد باشا وداود باشا و (ريتش) ، ولا يعني هذا أن الشخصيات كلها شخصيات حقيقية ، فهناك شخصيات متخيلة قد يكون لها نصيب من الواقع .

نحن في الرواية أمام مسلمين ومسيحيين ويهود ، وأمام عرب وفرنسيين وإنجليز وأتراك وفارسيين ، وأمام سكان مدن وسكان بادية وسكان ريف ، وسأقتصر هنا في الكتابة عن صورة اليهود .

تحفل الرواية بنماذج يهودية عديدة ، ذكورية ونسائية ، وهي نماذج تمثل الطائفة اليهودية العراقية . هناك تجار وهناك رجال دين ، وهناك موظفون كتبة ، وهناك نسوة يبدون ، قياساً إلى النماذج النسوية العربية المسلمة داخل النص الروائي ، يبدون متحررات يمارسن ، داخل المجتمع ، أدواراً تقتصر عليهن . إنهن مغنيات وراقصات وصاحبات بيوت ترفيهية ، ولا نقرأ ، في الرواية ، عن نسوة مسلمات يقمن بهذه الأدوار في المجتمع .

ولا يشكل اليهود أفراداً يفني الواحد منهم حياته في سبيل الملة اليهودية ، ثمة تنافس بينهم يؤدي إلى الكراهية والتناحر ، فالمصلحة الخاصة لهذا أو ذاك

قد تدفعه لأن يقف في وجه آخر من أبناء ملته . ثمة خصام ووئام .

ونحن نقرأ عن اليهود ، في الرواية ، من خلال النماذج الروائية ، ومن خلال آراء السارد ، ومن خلال تعليقات الشخصيات الروائية المختلفة .

هناك من بين النماذج اليهودية من يكون حضوره عابراً ، ولكن هناك أيضاً من يظل حاضراً في أجزاء الرواية الثلاثة ، حتى ليمكن القول إنه شخصية تكاد تكون رئيسية . والأخيرة تظل عالقة في ذهن القارئ أكثر من الأولى . تتمثل النماذج العابرة في شخصية رجل الدين الحاخام طقو موشي ، وفي سلطانة رجوان وابنتيها سارة وزكية ، وفي جاكي الأصفر (أبو سارة). يهتم الحاخام بالشعائر الدينية وأمور الطائفة ، وتقود الثانية جوقاً من الدقاقات ، وهي ذات صوت جميل تغني في أفراح المسلمين في بيوتهم ، وكانت ذات قوام ، رغم السمنة ، يثير شهوة الرجال ، كما يثير فضول النساء . وأما جاكي الأصفر فهو متعلم يفك الحرف ويعمل كاتباً ، يتصف بالبخل ، ويبدو حذراً من الآخرين . وأما النماذج الرئيسية فهي عزرا بن سليم روفة وساسون أفندي وروجينا حسقيل أو روجينا مراد .

المهنة التي يمارسها ساسون أفندي هي وظيفة صراف باشي لدى سعيد باشا ، ولكنه تاجر قبل هذا ، ولا يختلف عنه عزرا الذي يغدو صراف باشي إبان حكم داود الذي أقصى سعيداً . وتكون العلاقة بين ساسون وعزرا غير ودية ، إنها علاقة تقوم على التنافس ، ولكنهما، مع مرور الأيام ، يتصالحان . وتكاد صورة ساسون وعزرا لا تختلف عن صورة (شايلوك) . إنهما تاجران يهتمان كثيراً بأمر تجارتهما . وتذكرنا وظيفة كل منهما بوظيفة اليهود في الأندلس ، في القرن الخامس الهجري . لقد كان يوسف ابن النغرلة ، ومن قبله أبوه إسماعيل ، وزيرين لشؤون المال لدى ابن باديس .

يدفع عزرا المال رشوة حتى ينقذ رأسه ، ويملك ثروة هيأ لها بكثير من الذكاء ، إنه يرى أن المال وحده لا يستطيع أن يفعل شيئاً إذا لم يقده عقل وهاج . وتقوم فلسفته على أن الإنسان إذا كان قادراً على أن يكسب المال _ إذا كان بارعاً وواتاه الحظ – فالأكثر أهمية هو أن يجعل هذا وسيلة لمال أكثر ، لقوة أكبر ، لا يبدو عزرا بخيلاً ، أنه على استعداد لأن ينفق المال من أجل الحصول على منصب حتى لو لم يستعد هذا المال . لنر ما يكتبه لابنه ، وهذا يعبر عن طبيعة شخصيته ، لنر :

"وتركت لكم ثلاثة أنواع من الثروة : مالاً إذا عرفتم كيف تتصرفون به سوف يتضاعف من جيل إلى جيل ، وتركت لكم علاقات تحميكم من غدر الزمان وتقلب الأيام ، وتركت لكم سمعة تحول التراب إلى ذهب ، وتجعل كل حاكم يتلمس رأسه قبل أن يعاديكم..."[١٣] .

ونحن نلاحظ ، من خلال النص الروائي ، أن اليهود يملكون المال ، وأن

لهم علاقات مع الحكام ، وأن الحكام بحاجة إلى أموالهم . وربما نعود هنا ثانية إلى ابن النغرلة وابن باديس . كان ابن النغرلة يملك المال ، وغدا وزيراً ، وأراد أن يستأثر بالحكم ، وحين أراد بلقين بن حبوس بن باديس أن يعزله ، دس ابن النغرلة له السم فقتله ، وربما ونحن نقرأ عن شكل العلاقة بين ساسون وعزرا نتذكر شكل العلاقة بين ابن النغرلة وبعض اليهود ، فقد كان له من بين اليهود خصوم ، وإن لم يشر أبو اسحق في قصيدته إلى هذا حيث عمم القول في اليهود ، فقد ذكرته بعض المصادر التاريخية.

هنا يمكن أن ننظر في شخصية ساسون . كما ذكرت كان ساسون تاجراً وكان صراف باشي ، ولكنه كما يراه عزرا ، كان داهية ، لننظر إلى الصورة التي يرسمها له عزرا ، يرد على لسان السارد :

"كان عزرا على يقين أن ساسون مثل أسماك الأنهار الجبلية : أشواك كثيرة ومرونة في الحركة والانتقال ، لكن لا تغادر محيطها ، إذ لو فعلت لن يقدر لها أن تعيش . قد تختفي فترة ، قد تموه نفسها ، لكن لابد أن تظهر حالما تشعر بالأمان"(١٤) .

اليهودي هنا ، وهو نموذج وليس نمطاً ، يمثل فرداً ولا يمثل جماعة ، لأن الحكم صادر عليه من واحد من أبناء ملته ، اليهودي هنا مؤذ ، ولكنه مرن ، وهو قد يتوارى عن الأنظار إذا ما كان هناك خطر يهدده ، ولكنه يظل مرتبطاً بالمكان الذي نشأ فيه .

ثمة صورة أخرى لساسون ترسمها يهودية ، إنها أيضاً تندرج ضمن تصور الذات اليهودية لذاتها ، كما يتخيل ذلك المؤلف . تقول روجينا عن ساسون :

"مثل ما يحب الفلوس وما يشبع منها ، يحب الكيف : البستة والمقام ، ويموت بيا ليل ويا عين ، أما إذا صاحت مرية بآخر الليل : أوف ، تتلقاه راكع خاشع ، وبعد ما تخلص الأوف يسيل كراعة وينشمر بين زرورها"(١٥) .

أنه ، حتى من وجهة نظر يهودية ، وإن كانت متخيلة ، يحب المال ، ولكنه يحب الغناء، وإذا ما استبد به الطرب مد يده إلى صدر المرأة . وحب المرأة ليس مقتصراً على ساسون. عزرا أيضاً له علاقات نسائية مع لورا ، ولكن العلاقات النسوية ، داخل النص الروائي ، ليست مقتصرة على اليهود .

تمثل روجينا ، مثل سلطانه ، نموذج المرأة اليهودية ، إنها اليهودية القحبة التي تدير بيت دعارة ، وهي المرأة التي يوظفها اليهود وغير اليهود للتجسس على الآخرين ، إما بالإقناع وإما بالترهيب والملاحقة ، ويجبرها على هذا من يملك القوة أو من يملك المال . وقد تخدم غير جهة. تشهد على الآغا الانكشاري سعيد عليوي ، لصالح داود باشا ، وتغادر في النهاية العراق، مع القنصل البريطاني ، إلى بريطانيا . ويستدل من هذا أنها كانت تتجسس أيضاً

لصالح القنصل . ولئن كانت سلطانه رجوان تغني ، وليس في غنائها ما يعيب ، ولهذا يسمح لها العرب المسلمون بدخول بيوتهم لتغني في أفراحهم ، فإن روجينا تدير بيت دعارة ، وهي ، في نظر داود باشا وفي نظر غيره ، ليست أكثر من قواده وقحبة .

لئن كان السارد قدم لنا ، وهو يسرد ، النماذج الروائية وتركها تعبر عن ذاتها وتفصح في هذا عن رأيها في ذاتها وفي الآخرين ، فإن ما يرد على لسانه هو لم يكن يخلو من آراء في اليهود ، وفي غيرهم ، وما يهمنا هنا هو رأيه في اليهود .

تجدر الإشارة ، ابتداءً ، إلى أن السارد في الرواية كلي المعرفة ، ويبدو أحياناً كثيرة سارداً ليبرالياً لا يكتفي بنقل رواية دون غيرها ، إنه ، حين يتعدد القول في حادثة ، يورد الأقوال العديدة ، ولعل الأهم من هذا هو السؤال إن كان السارد شخصاً آخر غير عبد الرحمن منيف . ولا تقول لنا الرواية شيئاً عن هذا . فنحن لا نعرف للسارد خصائص وصفات تميزه عن عبد الرحمن منيف ، ولكننا ، في الوقت نفسه ، لا نستطيع أن نثبت أنه منيف نفسه . قد نستطيع أن نطابق بينه وبين منيف ، وقد نستطيع القول إنهما ليسا شخصاً واحداً ، ونعتمد في رأينا الأخير على أن السارد كان شاهداً على أحداث الزمن الروائي ، خلافاً لمنيف الذي ولد في القرن العشرين . وأياً كان الأمر فإن ما يهمنا هو تصور السارد لليهود ، وبعد ذلك يمكن التساؤل إن كان هذا التصور هو تصور منيف نفسه ، ولإثبات هذا قد يحتاج المرء إلى سؤال منيف عن رأيه في اليهود ، يرد على لسان السارد ما يلي :

"كيف يعجز أبو سارة عن قراءة مجرد رسالة عادية لإنسان فقير مثل حسون ؟ ألا يجوز أن يكون فيها أمر يخشاه ، ولا يريد أن يكون شاهداً أو ترجماناً ، كعادة اليهود الذين يرفضون أن يكونوا طرفاً في مشاكل ... قد تؤثر على تجارتهم"[١٦] .

ويفهم من هذا أن السارد يرى أن اليهود يراعون أول ما يراعون مصالحهم التجارية ، وما يدعم هذا ما يرد في الرواية على لسان حسقيل بن عزرا :

"لا أهتم بالسياسة إلا بقدر تأثيرها على الأوضاع الاقتصادية والمالية ، عدا ذلك لا تعني لي السياسة شيئاً ، ولا أحب أن أصدع رأسي بخصومات هؤلاء"[١٧] .ويفهم من أقوال السارد أيضاً أن اليهود بخلاء ، ولا يراعون عادات العرب وتقاليدهم فيما يمس الضيف . يذهب الأسطة عواد إلى أبو سارة لكي يقرأ له هذا الرسالة التي وردت إلى حسون ، ولا يطلب أبو سارة للأسطة شايا أو قهوة ، لنصغي إلى كلام السارد :

"وكيف أن جاكي لم يفطن ، أو لم يفكر ، بأن يأمر له باستكان شاي ، رغم أن قهوة ابن زبيبة على بعد خطوتين ، وأن صانع القهوة مر عدة مرات ،

وأطل برأسه وسأل ما إذا يأمره أبو سارة بأي شيء"[18] .

والسارد الذي يراقب سلوك شخوصه ويرصد حركاتهم وأقوالهم يرصد أيضاً انعكاس الأحداث على ملامحهم ، ومن خلال هذا نلحظ أنه يلحظ أن اليهود يتمسكنون . لكأن اليهودي ذليل يميل إلى التمسكن حين لا يقوى على ما لا يريد . حين يأمر الباشا عزرا ويطلب منه شيئاً لا يرضى عزرا عنه يتكلم الأخير بمسكنة . ويتكرر هذا غير مرة . لنقرأ الفقرتين التاليتين للسارد :

"صمت عزرا ، فقد أحس أن موجة من الغضب تسيطر على الباشا ، لأن الكلمات خرجت من بين أسنانه ، وهو يعرف ماذا يمكن أن يترتب إذا واصل بهذه الطريقة . قال بمسكنة:"[19]

"لكن الباشا هز رأسه بعدم اهتمام ، وكأنه يعتبر ريتش مسؤولاً ، فرد عزرا بمسكنة .."[20]

كلام السارد يفصح لنا أيضاً عن رأي في المرأة اليهودية . يأتي السارد على زيارة الآغا سعيد عليوي إلى بيت روجينا ، ويصف لنا تصرفات روجينا ، ومما يقوله السارد :

"كانت روجينا في بعض الليالي تتكلم بطريقة لا تخلو من دلع ، إذا تعتمد أن تكون قريبة جداً من الآغا ، وحين لا تكفي الكلمات للتعبير عما تريد كانت تميل عليه ، تنكزه بكتفها كوسيلة إضافية في الإقناع"[21] .

لكأن السارد هنا مقتنع بفكرة تسخير اليهودية جسدها لتحقيق ما تتطلع إليه أو ما يطلبه الآخرون منها ، ومما يعرفه السارد عن اليهود أنهم يحتفظون بالكثير من التحف النادرة ، وأنهم لا يمانعون ببيعها إذا تلقوا مقابلها مالاً مجزياً وهذا المقابل يتفاوت تبعاً للمشتري ومدى حماسته ورغبته بالتحفة ، والعادة أن تكون معروضة للبيع وغير معروضة في نفس الوقت"[22].

تفصح الرواية عن أطراف أخرى تبدي رأيها في اليهود ، وهي أطراف عديدة تختلف ثقافياً وعرقياً أيضاً ، هناك المسيحي الإنجليزي ، وهناك الحاكم في العراق الذي ولد لأم مسيحية وأسلم وغدا مسلماً ورعاً تقياً ، وهو داود باشا الحاكم المثقف ، وهناك عامة الناس من سكان بغداد .

يطلب حامد ، وهو ضابط من ضباط الآغا ، شهادة من ضابط القلم في القلعة واسمه مزاحم ، فيتردد الأخير في إصدارها لأنه مسؤول عما يصدر عنه من أوراق ويخشى من العواقب، وحين يصر مزاحم على رأيه ، يقول له حامد :

"ـ دفاترك صارت مثل دفاتر اليهود ما تنفتح إلا وقت الإفلاس ، فحرام إذا انفتحت نوبة بالسنة ونقشت منها شهادة حسن سلوك"[23] .

اليهود هنا ، كما يلاحظ ، مضرب مثل لأن لهم سلوكاً خاصاً بهم .

ويأتي السارد على حديث ذنون _ وذنون فنان عراقي من سكان بغداد _

عن بطرس يعقوب الذي ساعد الإنجليز في استخراج الذهب والفضة والتماثيل من الأرض ، ويختم ذنون حديثه بالقول :

"وما كفاه هذا ، صار يفتر الولاية من أولها لتاليها ، مثل يهودي أبو بيع ، منّو عنده حاجات قديمة للبيع ، منّو لقي أصنام دفنها الكفار حتى نخلص ديرة الإسلام منها ... ما خلّى شيء إلا وقال للإنجليز : تعالوا ، خذوا ، شيلوا .."[٢٤]

.

ويفهم من الكلام المقتبس ، أن هناك مهناً يمارسها اليهود ، وهي شراء الأشياء القديمة ، ومنها التحف ، ويفهم منه أيضاً أنهم يبيعون كل شيء .

ويخاف اليهود من الخسارة ، وتنعكس على ملامحهم بوضوح . يرد على لسان الأسطة عواد ، وهو من عامة الشعب ، ما يلي :

"-إذا شفت اليهودي مدلغم وما يضحك لخبز التنور ، فاعرف أنه خايف ، وخوفه من الخسارة اللي صارت أو من الخسارة اللي راح تصير ، والشريف بينهم ماكل الأخضر واليابس"[٢٥] .

أما البريطاني (ريتش) ، وهو قنصل بريطانيا في العراق في حينه ، فيقصر دور اليهود في الأحداث على المال . إنه يربط بينهم وبين المال ، فإذا كان الآخرون يشاركون في الأحداث ، وتكون مشاركتهم في السياسة ، فإن اليهود أيضاً يشاركون ، ولكن دورهم يقتصر على المال . لنقرأ ما يقوله ريتش لحسقيل :

"التغيير ، لكي يحصل ، يحتاج إلى إمكانيات ، وهذه لا توفرها إلا الأموال ، ومن أجل تأمين تلك الأموال ، لابد من الاتفاق على صيغة بين الدولة والذين يملكون المال ، وهنا يأتي دوركم"[٢٦] .

وهذا قد يذكر قارئ (شكسبير) بـ (شيلوك) و (أنطونيو) المسيحي الذي كان يقترض المال من الأول ، فهل كان (ريتش) قارئاً جيداً لـ (شكسبير) ؟

وإذا ما تتبعنا أقوال داود باشا الذي يوظف عزرا في منصب صراف باشي ، فهمنا أنه يرى اليهود حريصين على المال ، وأن حبهم المال يسري في دمهم ، حين يتردد نادر أفندي ، وهو موظف لدى عزرا ، في إنفاق المال بأريحية ويبدو حريصاً عليه ، يعقب داود باشا :

"- هذا الأثول ، نادر أفندي ، لابد يكون به عرق يهودي ، لأن مثل هذا المرض موشغلة عادة تعودها ، هذا شيء يسري بالدم"[٢٧] .

حتى نادر أفندي هذا يميز بين اليهود وغيرهم في علاقة اليهود وغير اليهود بالمال . يطلب داود باشا ومعاونوه من نادر أن يعطي المال لشيوخ القبائل البدو ، فيستاء من هذا لأن هؤلاء لا يعرفون المال كما يعرفه اليهود الذين له دراية وخبرة به . يرد على لسان نادر :

"اليهودي ، الفلوس ، وهي جوا الكيس ، بالظلمة ، ما يمد الإبهام والسبابة

ويلمسها ، يطخ بها ، إلا ويعرفها ، ويعرف شنو يطلع وشوكت ، أما هذول البدو ..."[28] .

وتتكرر العبارات التي تصف اليهود بحب المال مراراً ، من ذلك مثلاً ما ورد على لسان سيفو وهو يبدي رأيه في ص ٤٦٢ من الجزء الأول في الملا حمادي :

"ملا حمادي حيال ، ما يعرف الحلال من الحرام ، الفلس ربه ومعبوده ، مثل اليهود ، أكثر من اليهود "

هذه هي صورة اليهود من خلال النماذج المصورة ومن خلال المتخيل السردي والشعبي والرسمي والإنجليزي ، ولكن ثمة ملاحظة تجدر الكتابة عنها . يريد نسيم بن ساسون أن يتزوج من زكية بنت سلطانه ، ولكنه يشترط عليها أن لا تمارس الغناء والرقص وتوافق هي على شرطه ، علماً بأن أمها مغنية وراقصة . ولهذا دلالته إذ تبرز الرواية نموذجاً يهودياً عربياً يتأثر بالبيئة والمحيط ويبدو محافظاً لا يقبل أن تمارس زوجته مهنة ترى فيها أغلبية الناس مهنة غير مقبولة ، وإن كانت تتقبلها من غيرها . وهكذا لا يكون اليهود في الرواية على شاكلة روجنيا وسلطانة : بغايا وجواسيس ومغنيين وراقصات ، ولا يكونون أيضاً قوادين ولا يكترثون للعرض . ثمة محافظون يرفضون التحرر والانفتاح والمهن غير المقبولة من المحيط[29] .

الخلاصة

لم تختلف صورة اليهود في "أرض السواد" اختلافاً جذرياً عن الصورة التي عرفتها الآداب العالمية والعربية قبل القرن التاسع عشر : اليهود تجار يحبون المال حباً جماً لدرجة أنه يغدو معبودهم ويصبحون في هذا مضرب مثل ، والمال الذي يمتلكونه يجعل الآخرين في حاجة إليهم ، وهذا قد يجر عليهم الخراب ، ولكن قد يؤهلهم لاحتلال مناصب بارزة . والمرآة اليهودية في الرواية بغي وجاسوسة وتمارس مهناً ، مثل الرقص والغناء ، وهذا التصور ربما يذكرنا بعبارة "فراخ الزنا" التي وردت في قصيدة أبي اسحق الالبيري ، وإن كان منيف لم يعمم وأشار إلى يهود محافظين .

ويلاحظ أن عبد الرحمن منيف لم يسقط على يهود العراق في حينه – أي ما بين ١٨٠٢-١٨٢١ وهو الزمن الروائي كما لاحظنا – تصورات أخرى أبرزتها لهم النصوص الأدبية العالمية والعربية التي كتبت بعد هذا التاريخ . ويبدو أن الكاتب ، ظل وهو يكتب نصه ، أسير الصورة التي عرفت عن اليهود حتى ذلك الزمن .

تاريخ إنجاز الدراسة
٢٠٠٢/٧/٢٩

[1] عبد الرحمن منيف ، أرض السواد ، بيروت ، ١٩٩٩ .

[2] حول الرواية انظر : ماهر جرار ، أرض السواد وخضار السرد ، قراءة أولى في رواية عبد الرحمن منيف ، مجلة الطريق اللبنانية ، ع٤، سنة ٢٠٠٠م ، ص١٢٩-ص١٥٨ .

[3] حول صورة اليهود في الأدب العالمي ، وغالباً الغربي ، انظر : Horst S.und Ingrid Daemmrich في كتابيهما : Themen und Motive in der literatur وقد صدر الكتاب في مدينة (توبنغن) في ألمانيا في عام ١٩٨٧ . انظر ص١٩١ وما بعدها والكتابة عن صورة اليهود في الأدب العالمي منتزعة من هناك مع بعض التصرف ، إذ هي ليست ترجمة حرفية .

[4] صدرت الطبعة الأولى من كتاب كنفاني عام ١٩٦٦ ، وصدرت الطبعة الأولى من كتاب بسيسو في عام ١٩٧٠ ، وكلاهما قرأ الأعمال الأدبية المكتوبة بالإنجليزية أو المنقولة من العبرية إليها .

[5] حول ذلك انظر : عادل الأسطة : اليهود في الأدب الفلسطيني بين ١٩١٣ و ١٩٨٧ ، القدس ، ١٩٩٢ . ص٢٤ وما بعدها .

[6] حول صورة اليهود في القرآن الكريم انظر دراسة رشاد عبد الله الشامي ، رؤية مصرية لصورة اليهود في أدب إحسان عبد القدوس، وقد ظهرت الدراسة في كتاب خاص في عام ١٩٩٢ ، كما ظهرت في كتاب : "صورة الآخر : العربي ناظراً ومنظوراً إليه ، من تحرير الطاهر لبيب ، بيروت ، ١٩٩٩ ، وانظر ص٨٥٠ و٨٥١ و٨٥٢ من هذا الكتاب – أي الكتاب الذي حرره لبيب . وانظر : محمد نور الدين آفاية ، الغرب المتخيل ، بيروت ، ٢٠٠٠ / ص٥٨ وما بعدها .

[7] اعتمد في قراءة هذا النص على كتاب أنيس المقدسي ، أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ط١١ ، ص١٣٥.

[8] انظر ديوان أبي الطيب المتنبي ، وتحديداً القصيدة التي مطلعها :

كم قتيل ، كما قتلت ، شهيدٍ ببياض الطُّلى وورد الحدود

وهي قصيدة قالها في صباه . (ط بيروت ، ١٩٧٨ ، ص٣١٩)

[9] اعتمد هنا على دراسة ورد محمدي مكاري ، الملامح القصصية في كتاب الإمتاع والمؤانسة ، انظر مجلة جذور السعودية ، ع٣ ، آذار ٢٠٠٠ ن ص٢٦٠ .

[10] السابق ، ص٢٦٠ .

[11] انظر دراسة محمد بن عبد الرحمن الهدلق ، قصيدة أبي اسحق الإلبيري إلى باديس بن حبوس الصنهاجي : دوافعها وتأثيرها على أهل غرناطة ، مجلة جذور السعودية ، ع٢ ، أيلول ١٩٩٩ ، ص٩٠-ص١٠٦ ، والقصيدة ملحقة بالدراسة ، والأبيات منتزعة منها.

[12] هناك العديد من الدراسات التي أنجزت حول صورة اليهود في الأدب العربي ، وقد أوردتها في دراستي "اليهود في الأدب الفلسطيني بين ١٩١٣ و ١٩٨٧ . مرجع سبق ذكره .

[13] منيف ، أرض السواد ، ج١ ، ص٨٣ .

[14] السابق ، ١ ، ١٩٦ .

[15] السابق ، ١ ، ٢٠١ .

[16] السابق ، ٢ ، ١٢٤ .

[17] السابق ، ٣ ، ٥٦ .

[18] السابق ، ٢ ، ١٢٥ .

[19] السابق ، ٣ ، ٢٤٣ .

[20] السابق ، ٣ ، ٢٤٧ .

[21] السابق ، ٢ ، ٢٠٤ .

[22] السابق ، ٢ ، ٣٤٤ .

[23] السابق ، ٢ ، ٢٢٢ .

[24] السابق ، ٢ ، ٣٨٠ .

[25] السابق ، ٣ ، ٢١٧ .

[26] السابق ، ٣ ، ٥٧ .

[27] السابق ، ٣ ، ٦٦ .

[28] السابق ، ٣ ، ١٠٩ .

[29] السابق ، ١ ، ١٩٢ .